A.U.B. LIBRARY

Cat. May 1939

297.3
A161lA

أحمد زكي أبو شادي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

297.3
A5241lA
c.1

لماذا أنا مؤمن ؟

(ملحق بمجلة « أدبى »)

١٩٣٧

Cat. may 1939

57720

مطبعة التعاون
٣ شارع فرنسا بالاسكندرية
تليفون ٢٠٠٣٠

لماذا أنا مؤمن ؟

توطئة

نشرت مجلة (الإمام) مقالاً للدكتور اسماعيل أحمد أدهم بعنوان « لماذا أنا ملحد ؟ » كان بمثابة ردٍّ على رسالتى « عقيدة الألوهة » وهى الحلقة الثانية من بحوثى الاسلامية الفلسفية ، وقد سبق للدكتور أدهم أن كتب ينتقدنى فى مجلة (أدبى) وفى غيرها كما كتبَ الىَّ وحادثنى خاصةً فى ذلك فأحببت أن أجعل هذه العجالةَ بمثابة ردٍّ على آرائه وآراء مريديه الى جانب كونها إلمامةً عامةً بآرائى الدينية وتبياناً صريحاً لأسباب إيمانى .

ولا بدَّ لى أولاً من أن أشكر لصديقى الكاتب الحرِّ رئيس تحرير (الإمام) رعايته لحرية الفكر ولو جاء ما ينشره ضد آرائه وآراء خاصة أصدقائه ، وهذا غيرُ عجيبٍ من مثل السَّحرتى فى نبالة طباعه وثقافته ، كما لا بدَّ لى ثانياً من أن أشكر للدكتور أدهم صراحته فى النقد بالرغم من مودته لى التى تجلَّت غير مرة فى كتابته الأدبية عنى .

وأحبّ أن أصارح ناقدى بأن سخطه على بعض شيوخ الاسلام هو على ما يظهر سببٌ من أسباب حملته على الاسلام نفسه ، مع أن الاسلام مستقل فى جوهره ونقائه عن تصرّفات شيوخه . لا أقول ذلك بالنسبة لرسالته الأخيرة التى تعدّ من قبيل الفلسفة الرياضية ، ولكن بالنسبة لمجموع كتاباته السابقة ومن بينها نقده لمؤلَّفى (رسالة محمد) .

وانى أريد فى هذه العجالة أن أتعرض لتلك النقاط المختلفة تصفيةً لهذا الموضوع وإنصافاً للاسلام الذى لا يرضينى أن تغمط مزاياه من أجل تصرفات شيوخه الشخصية .

مزايا الاسلام

للاسلام ثلاث مزايا عظيمة مَنْ سكتَ عن ضياعها فقد عاون على ضياع الاسلام نفسه :

(١) وراثته لحسنات الديانات السابقة وقيامه على العقل والعلم

(٢) ديمقراطيته المتناهية

(٣) تخليه عن نظام الكهنوت والقساوسة .

وقد أوجبَ الاسلامُ على كل مسلم أن يبشّر بهذه الحقائق ، لا فارق فى ذلك بين حاكم ومحكوم ، ولا بين موظف وغير موظف ، ولا بين شعب وآخر من الشعوب الاسلامية . ولهذا دفعنى ضميرى الى إنشاء هذه السلسلة من البحوث الاسلامية الحرة لأن هذه فريضة دينية فى اعتقادى ، واجبُها يلزم كاتباً مثلى حمل القلمَ أكثر من ثلاثين عاماً حينما كان كثيرون من الشيوخ المعروفين الآن فىّ حُكم النكرات . وهو واجبٌ أقدمه محبةً لله سبحانه وتعالى وأنا فى الحلقة الخامسة من عمرى .

أما هذه البحوث التى أصدرتها حتى الآن فهى : (١) مَذهبى — وهو مجملُ مذهبى الدينى الذى أدعو اليه فى حُدود العقل والعلم والتصوّف الاسلامى ، (٢) عقيدة الألوهة — وهو بحثٌ منطقى لاثبات الألوهة وتعليل الايمان بها تعليلاً سيكلوجياً علمياً ، (٣) رسالة محمد — وهو شرح للروح الانسانية العالية التى بشّر بها نبىُّ الاسلام (ص) وكانت أعظم مقوّمات دينه الحنيف ، (٤) المال فى الاسلام — وهو بيانٌ لديمقراطية الاسلام المالية التى استوحاها المصلحون فى الغرب وبَنَوْا عليها آمالَ السّلام العالمى ، (٥) حقوق الانسان — وهو عرضٌ لما كسبته الانسانية من الثورات المصلحة ورعاية الاسلام لهذه الحقوق ، (٦) لماذا أنا مؤمن ؟ — وهو هذا الردُّ على مذهب ارتباط الإلحاد بقانون الاحتمال ، والتعريف باستقلال الاسلام فى جوهره ونقائه عن تصرفات شيوخه .

وانه لممّا يحزن حقاً أن تدفع العنجهية أو الأنانية كثيرين من شيوخ الاسلام الى العديد من التصرفات القاضية على هذه المزايا العظيمة ، وأن يجاريهم فى ذلك بحكم مراكزهم بعضُ من أحسنّا الظنَّ بهم من رجالات الاسلام .

فأمّا عن وراثة الاسلام لحسنات الديانات السابقة وقيامه على العقل والعلم فقد تجلّيا فى أنضر عصوره بمظهر التسامى الفكرى وتقدير الفلاسفة والعلماء والأدباء

والشعراء أيّاً كانت عقائدهم وآراؤهم واجتهادهم وبانتفاء التعصُّب الدينى . وقد انقسم المسلمون الى نقليين Puritans وعقليين Rationalists ، وساير الأخيرون الحضارةَ وحملوا رايةَ الثقافة وطعَّموا الاسلامَ بالعلم والفلسفة ، ونبغ من بينهم أعظمُ رجال الاجتهاد . وعلى قدر ذلك التسامح وحرية الفكر والاجتهاد كانت تنمو عظمةُ الاسلام الروحية والفكرية بل والمادية أيضاً . وكان المنتظر طبعاً — وقد أصبحت لمصر منزلةٌ خاصةٌ فى العالم الاسلامى — أن يعى شيوخُها دُروسَ التاريخ وأن يكونوا القدوةَ المثلى فى تشجيع الحرية الفكرية والتسامح الدينى حيث يعيش الناسُ على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم متحابين تربطهم الوحدة الوطنية أو الانسانية بأوثق رباط . ولكن ما وقعَ بالفعل كان عكس ذلك ، ولهذا هرعنا لتدارك الأمر والتنبيه إليه ، فكان جزاؤنا أن اتّهمنا زوراً بالطعن فى الاسلام كأنَّ الشيوخ الأجلاء هم الاسلام المجسَّد ، فكلُّ نقدٍ لهم انتقاصٌ للاسلام ذاته ! وقد كتبنا منذ سنين داعين الى المعروف ناهين عن المنكر ، وكتاباتنا هذه مدوَّنة فى الصحف والمجلات الى جانب مؤلفاتنا الخاصة فلم نسمع أن أحداً شكَّ فى عقيدتنا أو اتهمنا فى ديننا من أجل ذلك ، بل كنا ولا نزال مشجَّعين مشكورين من العقلاء المستنيرين ، ولكنّ طغيان الابراشيين فى مصر — وبينهم عددٌ وافرٌ من شيوخ الدين المحترمين — شجَّع على مثل هذه المهاترات التى لم يسلم من أذاها حتى فضيلة الشيخ محمد أبو زيد الواعظ العام والمفكر الاسلامى المجتهد ، فحرقوا تفسيره القيم للقرآن الكريم ، وراحوا يجرّحون اختيارَ الرئيس إياه لمنصبه الحكومى الذى هو أصلحُ الناس له باجماع عارفيه ، وقديماً أُصيب ابن تيمية وابن رشد واحمد بن حنبل وغيرهم من الاعلام المجتهدين ، والى عهد قريب كان الاستدلالُ بآراء ابن تيمية وابن القيم وابن رشد يستوجب الملامةَ فى الأزهر وربما كان سبباً فى الحرمان من العالمية ! وأراد أولئك السادة أن يتحكموا فى عقول الناس مهما عظمت ثقافتهم كأنما كتاب الله بلغة غير لغتنا العربية وكأنما التحقيق التاريخى غير ميسور لنا ، فاذا بهم يحرمون من المذاهب الا ما وافق رُوحهم النقلية ، واذا بهم يكفرون كلَّ مجتهد مثل فضيلة الشيخ محمد أبو زيد على ما له من علم مشهور وهو مَن يعزّه نفسُ صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة ، كما يكفرون مثل كاتب هذه السطور ، وكما كفروا من قبل صاحب الفضيلة الشيخ سيد

مصطفى الشريف لأخذه بآراء ابن تيمية ، بل يلجأون حتى الى أساليب الدسائس السرية لاضطهاد أبى شادى وقصف قلمه حتى فى عهد الاستقلال، متخيّلين أنهم حكومة داخل الحكومة ، مع أنه لا دستورية مطلقاً لتجاوزهم حدودهم التعليمية الشرعية وتدخّلهم فى شئون الموظفين وعقائدهم ومذاهبهم وفى الادارة الحكومية ، بل إن فى ذلك كل الخطر على النظام المدنى الدستورى للحكم ، وما لأجل هذه النتيجة كانت تضحياتنا جميعاً ، ولا لهذه العاقبة بُذلتْ دماءُ الشهداء ، ولن يكون الحكم الديمقراطى بعد ذلك إلاّ حبراً على ورق والعياذ بالله . هذا الى أنه فرضٌ على كلّ مسلم أن يدعو الى الاسلام الصحيح الذى يؤمن به ، وليس فى قوانين الدولة ما يبيح مطلقاً لأى سلطة حكومية أن تغلّ قلمَ المسلم الغيور على صلاح دينه من الدعوة الى الصلاح الذى يؤمن به بحجة أن شيخ الأزهر أو غيره يطالب بذلك ، ثم يقال بعد هذا إن دين الدولة الاسلام ! وما أولى هؤلاء الناس بأن يراجعوا دستور الأمة مراراً ليعرفوا أىّ مخالفة يريدون اقترافها ضد الحريات الوجدانية التى كفلها الدستور لجميع المصريين على اختلاف طبقاتهم وهى حرية الضمير وحرية التدين وحرية الرأى فى حدود القانون ، ولكنهم تعوّدوا المهاترات الدينية والسياسية والتدخّل الاستبدادى فى العهد البائد ، فمن الصعب الآن إفهامُهم حدودَ سلطتهم وحقوقَ الناس فى هذا البلد ، وأن القانون — وليست الحزازات — هو سيد الجميع ، وأن من العبث التحدّث عن الاستقلال والحكم الدستورى اذا كانت أحكام الدستور تُمتهن .

وأمّا ديمقراطية الاسلام المتناهية فتنطق بها روائعُ الآيات من القرآن الكريم وسيرة النبى (ص) . وهى ديمقراطيةٌ تقترن بالتقشف لخير المجموع ، ولو أن هذه الروح الاسلامية قائمة الآن لما تهافت شيوخُ الدين على لقب أضخم من لقب « صاحب الفضيلة » على ما روته مجلةُ (الفتح) الاسلامية ، وصاحبُها من أصدق المسلمين السنيّين ! ولو أن هذه الروح قائمة لكان هؤلاء الشيوخُ فى طليعة الدُّعاة لنصرة مشروع الدفاع الوطنى مثلاً بدل اكتنازهم المالَ أو حصره فى أعمال القروض كما تثبت شكاوى نفر من أعلامهم فى المحاكم .... ولن أطيل فى هذا المجال المفجع المؤلم .

وأمّا عن تخلّى الاسلام عن نظام الكهنة والقساوسة فميزة عظيمة ، وبفضلها تفادينا ما يجرى الآن فى يوجوسلافيا مثلاً من حكم الكنيسة بالحرمان على رجال

الحكومة وعرقلة شؤون الدولة ، ولكن يظهر أن هذا الأمر عزَّ على شيوخنا الأجلاء فحاولوا أن يضعوا أصبعهم فى كثير من شؤن الدولة ، وحاولوا أخيراً أن يصبغوا حتى حفلة التولية بصبغة دينية ليس لها معنى سوى أن جلالة مليكنا المحبوب يتناول سلطته كرماً منهم لا بحكم وراثة العرش ولا بحكم الدستور ! ولما فوَّتت عليهم حكومتُنا الشعبيةُ الحكيمةُ ذلك نظَّموا فى صحف المعارضة الحملاتِ العجيبةَ على الرئيس الجليل وعلى صحبة الأوفياء ، ثم ابتدعوا بدعاً أخرى لتوكيد سلطانهم وتدخلهم بصور تشمئز منها نفوسُ الأحرار الذين يغارون على حرمة الدستور وحريات الوطن . ونحن جميعاً بلا جدال من جنود الوطن وحُماة الدستور ، وليس من الضرورى أن يشتغل أحدُنا بالسياسة ليقدر هذا الواجب ، بل هو واجبٌ عامٌّ نبهنا اليه الرئيس الجليل فى مناسبات شتى قبل توليه الحكم وبعد ذلك ، فبات من الواجب علينا أن نُفهِمَ الشعبَ بركةَ الحكم الدستورى ومبلغَ وفاء حكومته الدستورية لمصالحه الحقيقية ، وأنه لا معنى لاشتغال رجال الدين بالسياسة والحكم ولا معنى للتوسّع فى تفسير « الاسلام دين الدولة » على حساب النظام المدنى للحاكم ، وأن من الاثم اتخاذهم الدين سلاحاً مسموماً لطعن حكومتنا به من الخلف كلما خافوا على سلطانهم المخترَع وللتفريق بين عنصرى الأمة المتحابين ، ولا أرى أحكم فى هذا المقام من البيان الحازم الذى ألقاه صاحب المقام الرفيع رئيسنا الجليل فى مجلس النواب يوم ٢١ يولية سنة ١٩٣٧ . قال حفظه الله : —

ما هذا يا دعاة الديموقراطية ! الاسلام ضد النظام الملكي يا فصيح .. !!

« تنصّ المادة الخمسون من الدستور على ما يأتى :

قبل أن يباشر الملك سلطته الدستورية يحلف اليمين الآتية أمام هيئة المجلسين مجتمعين :

(أحلف بالله العظيم أنى أحترم الدستور وقوانين الامة المصرية وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه) .

وهذا القسم أمام ممثلى الامة فى البرلمان هو الاجراءُ الدستورى الوحيد الذى اشترط فى مباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية ، فلا يجوز أن تُشترَط لهذا الغرض مراسيم أخرى دينية أو غير دينيـة ، وما كان النص فى الدستور على أن دين الدولة هو الاسلام ليبيح تجاوز حدود الدستور باتخاذ

اجراءات أخرى غير التى نصّ عليها . والاسلامُ لا يعرف سلطةً روحيةً وليس بعد الرُّسل وساطةٌ بين الله وبين عباده (تصفيق حاد) . فلا معنى إذن للاحتجاج فى هذا الشأن بما نصّ عليه الدستور من أن دين الدولة هو الاسلام أو بمكانة مصر لدى الامم الاسلامية ، بل ان هذه المكانة نفسها تستلزم أن ننزه الدينَ عن إقحامه فيما ليس من مسائل الدين (تصفيق حاد) . وليس أحرص منى ولا من الحكومة التى أتشرف برئاستها على احترام الاسلام وتنزيه الاسلام (تصفيق حاد) ، كما أنه ليس أحرص منا على التزام أحكام الدستور (تصفيق) . ولكن الاحتفال بمباشرة جلالة الملك لسلطته الدستورية شىء آخر ، فهو مجال وطنى يجب أن يتبارى فيه سائرُ المصريين مسلمين وغير مسلمين (تصفيق حاد) . وقد أعلنت الحكومةُ برنامجَ الاحتفالات الرسمية وهو متفقٌ مع رغبات جلالة المليك المحبوب . ويسرنى أن أرى أن الامة من جهتها بمختلف جماعاتها وهيئاتها وعلى تباين أديانها قائمة أحسن القيام بواجب الاشتراك فى الاحتفال اشتراكاً يتناسب مع ما تنطوى عليه قلوبُها من الاخلاص والولاء لصاحب عرشها العظيم (تصفيق حاد) . »

هذه الكلمات الذهبية هى شريعتنا الوطنية ، وهى فى الوقت ذاته شريعتنا الاسلامية!!! ونحن نتمسك بها أشدَّ التمسك ونتخذها نبراساً هادياً فى تصرفاتنا . ومن هذا نرى أن حكومتنا الدستورية عاملة على خدمة الوطن والدين معاً فى الحدود المعقولة ، حينما شيوخنا الأجلاء يعملون بفضل أنانيتهم للقضاء على مزايا الاسلام العظمى وإن تظاهروا بالغيرة على الدين الحنيف . وقد أصابنى ضررٌ بليغٌ بل أضرار شتى بفضل دفاعى عن الحكم الدستورى تبعاً لتقاليد أسرتى العريقة فى وطنيتها منذ الثورة العرابية بل قبل ذلك ، وأصابنى هذا الضرر عن طريق رجال الدين بالذات . فهل كان فى ذلك ما يدعونى الى مؤخذة الدين نفسه على سوء تصرف شيوخه ؟ كلا ثم كلا . وليس للدكتور أدهم إذن أن يذكّرنى بالاساءات المنوّعة والاجحاف البالغ والأضرار التى أصابتنى على اعتبار أن تلك من جنايات الاسلام ذاته ، وأن من المنطق أن أصبح ساخطاً عليه ، فمعاذ الله أن أفعل ذلك ، إذ روحُ الاسلام بريئة من كل ذلك ومن عبث هؤلاء المسيئين .

عقيدة الألوهـــة

يُوحى علمُ مقارنة الأديان بأنَّ الايمان بالآلهة أو بالله مَرجعهُ فى كثيرٍ من الأحوال الى الوراثة الانسانية فى قرون مديدة من الانسان البدائى الذى كان يرهب الطبيعةَ أشدَّ الرهبة لجهله بقوانينها ونواميسها . وقد تدبَّرتُ ذلك طويلاً كما درستُ نظريات وتجاريب شتى لطائفة من رجال الفلسفة والتاريخ والدين والعلم فانتهيتُ الى نظريتى التى حبَّذها الدكتور ريتشارد بل Richard Bell الأستاذ بجامعة إدنبرة ، ألا وهى أن الاحساس بالألوهة إحساسٌ فطرىٌّ شبهُ غريزى ، وهو انجذابُ الجزء نحو الكل ، وقد أشار الدكتور أدهم نفسه الى ذلك فى دراسته الانجليزية عنى وفى سواها من كتاباته النقدية .

وهذا الاحساسُ له قوامٌ علميٌّ من حيث أننا ذرات كهربائية فى كونٍ مكهربٍ من أوله الى آخره ، فالتجاوبُ بين أجزائه مستمرٌّ بصور شتى ، ولكن يشملها جميعاً شعورُ التوحُّد ، وهذا الشعورُ الصوفىُّ هو أساسُ « عقيدة الألوهة » .

وليس لنا أن نجارىَ العامةَ أو جمهرةَ الناس فى أوهامهم فى تصوّر الله سبحانه وتعالى ، فان العلم وحده هو الذى يَهدى الوجدانَ فى ذلك . والاسلامُ فى أسمى معانيه لا يقوم الا على العقل والعلم ، فمحالٌ إذن فهم معنى الألوهة عن طريق الجهل والخرافات ، والمقصود بالفهم تفسير شعورنا الوجدانى السالف الذكر .

لنأخذ على سبيل المثال ما يتعلمه التلاميذ فى المدارس ، فقد قرأتُ لمؤلفين فاضلين هذه السطور : « اذا نظرنا الى الملابس التى نَلبَسها والمساكن التى نسكنها وجميع الادوات التى نستعملها وجدنا أن لها صنّاعاً صنعوها على الاشكال التى نراها بها . كذلك السمواتُ والأرضُ والكواكبُ والأنهارُ والهواءُ والماءُ وجميعُ المخلوقات لم توجد بطبيعتها ، بل لا بُدَّ لها من موجدٍ أوْجَدها وجعلَها بهذا النظام البديع ، وصانعُها لا بُدَّ أن يكون قادراً ، هو الله سبحانه وتعالى » (١) . وهذا تعريفٌ تقليدىٌّ خاطىء يرجع الى التفسير الحرفى

---

(١) كتاب (التعليم الدينى للاطفال) تأليف حسن توفيق وعطيه محمد ، ج ٣ ، ص ٤ .

بدل التفسير الرمزى للآيات القرآنية الشريفة ، فالثابت علمياً أن العالم كائنٌ دورىٌّ وأنه أزلىٌّ فى مادته لا فى صوره ، وليس ثمة شىء كائن من العدم . ولا يليق بقدر الله سبحانه وتعالى أن يقال عنه جلّ شأنه ما يُشعر أنه أخذ يفكر ثم خلقَ العالم من لاشىء ، إذ معنى هذا أنه مضى عليه وقتٌ كان وحيداً متردداً فى خلق العالم حسب تصوّر اخواننا النقليين . والأليق من كلّ هذا أن نلجأ الى التفسير العلمى للألوهة ، وقد تقدّمتُ بتفسير لقى ارتياحاً عند كثيرين من المفكرين ، وهو فى الوقت الذى يتمشى مع أزلية الكون يحتضن الآيةَ الكريمةَ « اللهُ نور السموات والارض » (سورة النور ، آية ٣٥) والآية الشريفة « فأينما تولّوا فثمَّ وجهُ الله » (سورة البقرة ، آية ١١٥) .

قدم فاتح .

ولو أن ناشئتنا لُقِّنوا أنه لا يوجد أمامهم أىُّ شىء يستطيع الاستقلالَ التامَّ بذاته ، وأننا جميعاً أجزاء من شىء أكبر ، وأن مجموع الوجود هو الرمز المشهود للألوهة المنظمة الحكيمة حسبَ سننٍ دقيقةٍ خالدة ، وأننا بفطرتنا نشعر بالحنين والابتهال إليها لاطمئناننا الى العدل الالهى الدائم سواء أكان سريعاً أم بطيئاً ، مباشراً أم غيرَ مباشر ، وأننا ذرات كهربائية صغيرة من هذه الكهربائية العظمى المسيطرة ، لفهموا مادياً وبأسلوبٍ صادقٍ معنى الألوهة بما يتفق وروح الاسلام المتجلّية فى مثل هاتين الآيتين الشريفتين ، بدل التعلق بمعانٍ آدميةٍ تعالى اللهُ عنها .

قانون الاحتمال والالحاد

وليس بعيداً أن الدكتور أدهم يشعر فى ذاته بهذا الشعور ، ولكنه يدع هذا جانباً ويتشبث بنقض الأوهام الشائعة وازاءها يُؤثر أن يسمى نفسه ملحداً على أن يكون مؤمناً غيرَ معقولٍ ولا عاقلٍ !

وقد تناول هذا الموضوع تناولاً طريفاً فلجأ الى الرياضيات واتخذ من قانون الاحتمال سنداً له إذ قال :

« ان العالم الخارجى ـ عالم الحادثات ـ يخضع لقوانين الاحتمال Probability فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من الحوادث . والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصفٌ لمجرى سلوك الحوادث وصلاتها بعضها ببعض . وقد نجحنا فى ساحة

الفيزيقا ـ الطبيعيات ـ فى أن نثبت أن (B) اذا كانت نتيجة effect للسبب cause (A) فان معنى ذلك أن هنالك علاقة بين الحادثتين (B) و (A) . ويحتمل أن تحدث هذه العلاقة بين (B) و (C) وبينها وبين (D) و (E) فكائنه يحتمل أن تكون (B) نتيجة للحادثة (A) وقتاً وللحادثة (C) وقتاً آخر ، وللحادثة (D) حيناً وللحادثة (E) حيناً آخر . والذى نخرج به من ذلك أن العلاقة بين ما نطلق عليه اصطلاح السبب وبين ما نطلق عليه اصطلاح النتيجة تخضع لسنن الاحتمال المحضة التى هى أساسُ الفكر العلمى الحديث . ونحن نعرف أن قرارة النظر الفيزيقى الحديث هو الوجهة الاحتمالية المحضة ، وليس لى أن أطيل فى هذه النقطة وانما أحيل القارىء الى مذكرتى العلمية لمعهد الطبيعيات الألمانى والمرسلة فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ والتى تليت فى اجتماع ١٧ سبتمبر ونشرت فى أعمال المعهد لشهر أكتوبر عن « المادة وبنائها الكهربائى » ، وقد لخصتُ جانباً من مقدمتها بجريدة (البصير) عدد ١٢١٢٠ (المؤرَّخ الأربعاء ٢١ يوليو سنة ١٩٣٧) ، وفى هذه المذكرة أثبتُّ أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمى للذرة ، فاذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال فانى أمضى بهذا الرأى الى نهايته وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة .

ولكن ما معنى الصدفة والتصادف ؟

يقول هنرى بوانكاريه فى أول الباب الرابع من كتابه « Science et Methode » فى صدد كلامه عن الصدفة والتصادف :

« انّ الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعترافٌ بالقصور عن تعرّف هذه الأسباب » .

والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده (أنظر لصديقنا البحاثه اسماعيل مظهر « ملتقى السبيل فى مذهب النشوء والارتقاء » ، ص ١٦٤ – ١٦٧) منذ تفتح العقل الانسانى ، غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقاً بُثَّ للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الانسانى فى كتابى Mathematik und Physik ج٢ ، فصل ٧ ، فى صدد الكلام عن الصدفة والتصادف . وهذا المعنى لا تؤتينى الألفاظ العادية للتعبير عنه لأن هذه الألفاظ ارتبطت

بمفهوم السبب والنتيجة ، ولهذا سنحاول أن نحدّد المعنى عن طريق ضرب الأمثلة .

لنفرض أن أمامنا زهرَ النرد ونحن جلوسٌ حول مائدة ، ومعلومٌ أن لكل زهر ستة أوجهٍ ، فلنرمز لكل وجهٍ بالرمز الآتى فى كل من الزهرين :

يك : دو : ثه : جهار : بنج : شيش

ل١ : ل٢ : ل٣ : ل٤ : ل٥ : ل٦ فى زهر النرد الأول

ك١ : ك٢ : ك٣ : ك٤ : ك٥ : ك٦ فى زهر النرد الثانى

وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتملٌ مجيئه إذا رمينا زهر النرد ، فان مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التى نبحثها .

إن نسبة احتمال هذه الأوجه تابعة لحالة اللاعب بزهر النرد ، ولكن لنا أن نتساءل : ما نسبة احتمال هذه الأوجه تحت نفس الشرائط ؟ فمثلاً لو فرضنا أنه فى المرة ن كانت نتيجة اللعب هى :

ل٦ × ك٦ = شيش × شيش = دش

فما أوجه مجىء الدش فى المرة (ن + س) ؟

إذا فرضنا أن الحالة الاحتمالية هى « ح » كان لنا أن نخلص من ذلك بأن اللاعب إذا رمى زهر النرد (ن + س)من المرات وكان مجموعها مثلاً ٣٦ مرة فاحتمال مجىء الدش هنا فى الواقع : $\frac{١}{(ن + س)}$

وبما أن ن + س = ٣٦ مرة فكأن النسبة الاحتمالية هى $\frac{١}{٣٦}$ ، فاذا أتى الدشّ مرة من ٣٦ مرة ما عُدّ ذلك غريباً لأنه محتمل الوقوع ، ولكن ليس معنى ذلك أن الدش لا بدّ من مجيئه لأن هذا يدخل فى باب آخر قد يكون باب الرجم . وكلما عظم مقدار (س) فى المعادلة (ن + س) تحدّد مقدار (ح) أى النسبة الاحتمالية ، وذلك خضوعاً لقانون الأعداد العظمى فى حسابات الاحتمال . ومعنى ذلك أن قانون الصدفة يسرى فى المقادير الكبيرة ، مثال ذلك أن عملية بتر الزائدة الدودية نسبة نجاحها ٠٩٥/. أعنى أن ٩٥ حالة تنجح من ١٠٠ حالة ، فلو فرضنا أن مائة مريض دخلوا أحد المستشفيات لاجراء هذه العملية فان الجراح يكون مطمئناً الى أنه سيخرج بنحو ٩٥ حالة

من هذه الحالات بنجاح ، فاذا سألته : يا دكتور ، ما نسبة احتمال النجاح فى هذه العمليات ؟ فانه يجيبك ٩٥ فى المائة ، ويكون مطمئناً لجوابه ، ولكنك إذا سألته : يا دكتور ، ما نسبة احتمال النجاح فى العملية التى ستجريها لفلان ؟ فانه يصمت ولا يجيبك ، لأنه يعجز عن معرفة النسبة الاحتمالية .

هذا المثالُ يوضِّح معنى قانون الصدفة فى أنها تتصل بالمقادير الكبيرة والكثرة العديدة . ويكون مفهوم سنة الصدفة وجه الاحتمال فى الحدوث ، ويكون السبب والنتيجة — من حيث هما مظهران للصلة بين حادثتين فى النطاق الخاضع لقانون العدد الأعظم الصدفى — حالةَ إمكان محض . ومعنى هذا أن السببية صلة إمكان بين شيئين يخضعان لقانون العدد الأعظم الصدفى ، فمثلاً لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة أعنى بنسبة ١ : ٣٦ مرة ، ففى الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجىء الدش ، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية فى شىء .

إذاً يمكننا أن نقول إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطى حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضُها مع بعض فى وحدات وتتداخل وتتناسق ثم تنحلّ وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم ..... وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الامكان التى يحددها قانونُ العدد الأعظم الصدفى ، ومثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف وقد أخذت هذه الحركة والاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورةٍ لانهائيةٍ ، فلا شك أنه فى دورةٍ من هذه الدورات اللانهائية لا بدَّ أن يخرج هذا المقالُ الذى تلوته الآن ، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لا بد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) وكذا (القرآن) مجموعاً منضَّداً مصحَّحاً من نفسه ، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وُضعتْ ستأخذ دورَها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهائية ، فاذا اعتبرنا (ح) رمزاً لحالة الاحتمال و (ص) رمزاً للانهائية كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات [١] :

---

(١) يريد الناقد بهذه المعادلة أن ظهور الحالات فى اللانهائية يحدده الاحتمال فى اللانهائية ذاتها .

ح : ص

وعالمنا لا يخرج عن كونه كتاباً من هذه الكتب ، له وحدته ونظامه وتنضيده ، إلا أنه تابعٌ لقانون الصدفة الشاملة .

يقول ألبرت اينشتين صاحب نظرية النسبية فى بحثٍ قديمٍ له :

(مثلنا ازاء العالم مثلُ رجلٍ أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئاً ، فلما أخذ فى مطالعته وتدرَّج من ذلك لدرسه وبانَ له ما فيه من أوجه التناسق الفكرى شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئاً غامضاً لا يصل الى كنهه ، هذا الشىء الغامض الذى عجزَ عن الوصول اليه هو عقلُ مؤلفه ، فاذا ما ترقى به التفكيرُ عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقرى أبدعه .

كذلك نحن ازاء العالم ، فنحن نشعر بان وراء نظامه شيئاً غامضاً لا تصل الى إدراكه عقولنا ، هذا الشىء هو « الله ») .

ويقول السير جيمس جينز الفلكى الانجليزى الشهير :

(إن صيغة المعادلة التى توحّد الكون هى الحدُّ الذى تشترك فيه كل الموجودات . ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لبابه . ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون وتربطها فى وحدةٍ عقليةٍ فهذا التفسير والربط لا يحمل الاَّ على أن طبيعة الأشياء رياضية ، ومن أجل هذا لا مندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون ، هذا العقل الرياضى الذى نلمس آثاره فى الكون هو « الله »)

وأنت ترى أن كليهما (والأول من أساطين الرياضيات فى العالم والثانى فلكى ورياضى من القدر الأول) عجز عن تصوّر حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة والتى يتبع دستورها العالم ، لا لشىء الاَّ لتغلُّب فكرة السبب والنتيجة عليهما .

الواقع أن اينشتين فى مثاله انتهى الى وجود شىء غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه بعقل صاحبه — مؤلفه — والواقع أن هذا احتمالٌ محضٌ لأنه يصحّ أن يكون خاضعاً لحالة أخرى ونتيجة لغير العقل ، ومثلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعاً لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه

الحالة . أما ما يقول السير جيمس جينز فرغم أنه أخطأ فى اعتباره الرياضة طبيعةَ الأشياء لأن نجاح الوجهة الرياضية فى ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء ، فالأشياء هى الكائن الواقع والرياضيات ربط ما هو واقع فى نظام ذهنى على قاعدة العلاقة والوحدة ، وبعبارة أخرى أن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع والواقع يتضمّنه الممكن ، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه . ومن هنا يتضح أنه لا غرابة فى انطباق الرياضيات على الكون الذى نألفه بل كل الغرابة فى عدم انطباقها ، لأن لكل كون رياضياته المخصوصة ، فكون من الأكوان مضبوط بالرياضيات شرط ضرورى لاعتباره كوناً . من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق اينشتين الى التماس الناحية الرياضية فى العالم ، وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضى وراء هذا العالم ، وهذا خطأ لأن العالم إن كان نظامٌ ما هو واقع خاضعاً لنظام ما هو ممكن فهو حالةُ احتمالٍ من عدة حالات والذى يحدّد احتماله قانون الصدفه الشامل لا السبب الأول الشامل (١) .

ان الصعوبة التى أرى الكثيرين يواجهوننى بها حينما أدعوهم الى النظر للعالم مستقلاً عن صلة السبب والنتيجة ، وخاضعاً لقانون الصدفة الشامل تردّ الى قسمين :

الأول : لأن مفهوم هذا الكلام رياضى صرف ومن الصعب التعبير عنه فى غير أسلوبه الرياضى ، وليس كل انسان رياضىٌ عنده القدرة على السير فى البرهان الرياضى .

الثانى : أن الاحتمالات تعطى العالم مفهوماً جديداً وتجعلنا ننظر اليه نظرة جديدة غير التى ألفناها . ومن هنا جاءت صعوبة تصوّر مفهوماتها لأن التغير الحادثَ أساسى يتناول أُسسَ التصوّر نفسه .

ولهذه الأسباب وحدها كانت الصعوبة قائمة أمام هذه النظرة الجديدة ومانعة الكثيرين الايمانَ بها .

أمّا أنا شخصياً فلا أجد هذه الصعوبات الا شكلية ، والزمنُ وحده قادر على إزالتها ، ومن هنا لا أجد بدّاً من الثبات على عقيدتى العلمية والدعوة الى نظريتى القائمة على قانون الصدفة الشامل الذى يعتبر فى الوقت نفسه أكبر ضربة للذين يؤمنون بوجود الله . »

---

(١) يريد الناقد بالسبب الاول الشامل « المطلق » Absolute أى الله .

ومع أنى اقتبستُ اقتباساً وافياً من ملاحظات الدكتور أدهم من باب الانصاف له ، فانى لا أرى أن نقضها من الوجهة الانسانية يحتاج الى بيان طويل ، إذ بديهى أنّ قانون الاحتمال اذا طُبِّق تطبيقاً لانهائياً فانه لا يعدو حدّ النظريات المسرفة ، إذ أن تنضيد القرآن الكريم من تلقاء ذاته كما يقول حضرة ناقدى أمرٌ نظرىٌّ محضٌ هو فى حكم المستحيل عملياً بالنسبة للانسان لأنه مما يدخل فى حسابات البلايين البعيدة التحقّق : مثال ذلك أن العالم متناهٍ فى حساب اينشتين ، ولكنه عملياً غيرُ متناهٍ لاستحالة الالمام الانسانى به حسياً . وكذلك الافتراض الذى يفترضه حضرته لا يذهب بمنزلة القرآن الكريم ولا بأىِّ كتاب مقدس ، إذ من السهل أن يجيبه أىُّ مسلم بأن قانون الاحتمال فى ذاته هو من السُّنن الالهية ، فلو نشأ القرآن الكريم أو الكتاب المقدّس بموجب هذا القانون لما تَعدّى أن يكون وحياً إلهياً بوسيلة طبيعية . وليس لسيطرة قانون الاحتمال على العالم ما يعنى وجودَ الفوضى فيه ، إذْ أن اتساع تطبيقه اتساعاً هائلاً يؤدّى حتماً الى نظم معيّنة ، وهو المشهود عملياً فى الوجود كما يثبت علمُ الفلك ذلك . ثم إن قانون الاحتمال يحتاج فى تطبيقه الى عوامل وهذا ما أغفله الدكتور أدهم ، فظهور القرآن الكريم فى تواريخ معينة ، ولأسباب معينة ، وفى صور عقلية معيّنة ، عوامل تؤثر فى قانون الاحتمال ولا تتأثر به ، بمعنى أنها ترضخه أو تتفاداه فى الزمن والتكييف ، مع أنه لو كان جارياً نظرياً على حسب رأى حضرته لجاز أن لا يظهر الكتابُ الشريفُ الاّ بعد ملايين السنين المقبلة ، وكلّ نظرىّ محض قائم على فروض حسابية لا تقع عملياً هو فى حكم اللّغو أو السفسطة المنطقية بالنسبة للانسان ولو كان صواباً من الوجهة الرياضية الكونية ، إذ أنه محال فى عالم الواقع المحسوس بالنسبة للكرة الأرضية ، وهذا ما يخصُّ الدين . وعلى هذا نرى أن الدكتور أدهم لم ينقض بذكائه وتخيّله ومعارفه الرياضية شيئاً من عقيدة الألوهة كما لم يمسّ الاسلام ذاته كدينٍ انسانىٍّ لهدايةِ البشر وتنظيمِ حياتهم .

الخلاصة

يبنى الدكتور أدهم إلحادَه المزعوم على أنّ قانون الاحتمال هو السائد فى الكون ، وإذن فكلُّ أثرٍ فيه — حتى القرآن الكريم — عرضةٌ لأن يكون

أثراً من آثار هذا القانون العام ، وبهذا تنتفى قدسيتُه كما ينتفى وجودُ قوة مدبّرة حكيمة هى قوةُ الألوهة . وهذه جراءة فى استغلال قانون الاحتمال يتهيّبها أخبرُ الناس به دون استثناء شركات التأمين !

ورأيى أولاً أن عقيدة الألوهة قائمة على الاحساس الجذبى من الجزء نحو الكل ، فهى ذاتُ أساسٍ علميٍّ صادقٍ ، كما أنها فى حكم الغريزة النفسية ، وأعتقد أن الدكتور أدهم نفسه راضخٌ لهذا الاحساس وإنْ لم تعجبه تفاسيرُ عامة الناس للألوهة ، فانى لم أرَ فى حياتى ملحداً بالمعنى الشائع ، وحتى مَن يدّعون ذلك نجد أن لهم إيمانهم الخاص .

أمّا قانون الاحتمال فهو عندما يتناول الملايين والبلايين وما هو فى حُكم اللانهائى تصبح نظرياته لغواً عملياً بالنسبة لعمر الانسانية . مثالُ ذلك أن الكونَ محدودٌ حسب تقدير اينشتين ، ولكنه غير محدود من الوجهة العملية لاستحالة إحاطة الانسان به حسّياً . وكذلك القرآن الكريم أو الكتاب المقدّس أو غيرهما من الأسفار الدينية الخالدة ، فانه من الوجهة العملية لا يمكن أن يخرج من تلقاء ذاته بدون تفكير عظيم ، وعلى هذا لا ينقض الحسابُ الرياضىُّ (الذى أشار اليه الدكتور أدهم) مكانته . يُضافُ الى هذا أن قانون الاحتمال فى ذاته هو من النواميس الطبيعية التى لها مكانتها فى تكييف الوجود تكييفاً منظماً لا تكييفاً قائماً على الفوضى ، والدليلُ على ذلك النتائجُ العمليةُ المشهودةُ والمراقَبةُ فلكياً : وبعبارة أخرى إن اتساع مَدَى قانون الاحتمال يعطيه تنظيماً هو الملحوظ فى تكييف العالم (راجع كتاب جوليان كوليدج (Introduction to Mathematical Probability. By Julian L. Coolidge.)

وعلى هذا لا محلَّ لتوهّم الفوضى التى تجعلنا نصغر عقيدة الألوهة وكلَّ ما يمتّ اليها بسبب ، ومن الواجب أن نتذكر أن حقائق الاحتمال الرياضى اللانهائى هى صادقة نظرياً بالنسبة للكون لا بالنسبة للانسان ذاته أو بالنسبة للانسانية جمعاء فى عمرها المحدود أو بالنسبة للكرة الأرضية ، وهذا وحده ما يهم الأديان البشرية التى تتمسك بالانسانيات العملية وحدها . وبناء على هذا فان مقال الدكتور أدهم عن الالحاد وعقيدة الألوهة لم يزد مثلى إلا تمسكاً بايمانه .

DATE DUE

ابو شادی ،احمد زکی
لماذا انا مؤمن
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01008586

297.3
A52411A
c. 1